أوراق ثقافية

15

عن علاقة الدين بالسياسة ومركزية الصراع على فلسطين

د. محمد عادل شريح

مركز فلسطين للدراسات والبحوث



مركز فلسطين للدراسات والبحوث

الطبعة الأولى -- يونيو 2007

محتوى الدراسة لا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز

بسم الله الرحمن الرحيم

مركز فلسطين للدراسات والبحوث

أنشئ مركز فلسطين للدراسات والبحوث بقطاع غزة في العام 1416هـ الموافق 1995م كمؤسسة أكاديمية مستقلة للمساهمة في تنمية الوعي الفكري والسياسي في المجتمع الفلسطيني.

ولتحقيق أهدافه يهتم المركز بدراسة وبحث القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإستراتيجية والثقافية والحضارية المتعلقة بالقضية الفلسطينية بأبعادها العربية والإسلامية والدولية.

وتوقاً لتحقيق إنجاز مميز، يحاول المركز المساهمة في خلق بيئة أكاديمية منفتحة وإبداعية أمام العلماء والمفكرين والباحثين، بالإضافة إلى برنامج البحوث والدراسات يعقد المركز المحاضرات العامة والندوات وورش العمل البحثية المتخصصة.

المحتوى

عن علاقة الدين بالسياسة
ومركزية الصراع على فلسطين

تتفق جميع القوى السياسية الفاعلة في المنطقة حول المكانة المركزية للقضية الفلسطينية، سواء كانت هذه القوى إسلامية أو تحررية قومية أو يسارية، فجميع هذه الأطراف تقر بمركزية قضية فلسطين وأهميتها بالنسبة للمشروع النهضوي التحرري في المنطقة مهما اختلفت الرؤى وتباينت في تحديد طبيعة هذا المشروع.

وتحتل القضية الفلسطينية مكانة مركزية على مستوى السياسة العالمية أيضاً حيث تمثل هذه القضية والموقف منها إحدى المسائل المفصلية التي تساهم في تحديد الهوية السياسية لهذه الدولة أو ذلك الحزب، وليس هناك مبالغة في هذا الأمر حيث أننا نلاحظ أن موقف أي دولة من دول العالم أو أي تيار سياسي وأيديولوجي من القضية الفلسطينية ودولة إسرائيل أو الصراع في الشرق الأوسط بشكل عام، له أثر كبير في تصنيف هذه الدولة أو التيار السياسي عالمياً وفي تحديد شبكة تحالفاته وعلاقاته.

لقد كانت القضية الفلسطينية وتداعياتها الإقليمية، قضية مركزية في صراع المعسكرين الكبيرين أثناء الحرب الباردة في النصف الثاني من القرن العشرين، وكانت مركزيتها قبل ذلك التاريخ تتبدى في أهمية الموقف الذي تتخذه أي قوة دولية مما يسمى بالمسألة اليهودية، وهي مركزية اليوم في تحديد الحظ الانتخابي لأي مرشح من مرشحي الرئاسة الأمريكية، وهي باعتراف كافة دول العالم القضية الأساسية في الشرق الوسط وهي المدخل لتحقيق استقرار أو عدم استقرار هذه المنطقة.

لكن ما هو السبب في تحول هذه القضية إلى قضية مركزية عالمية؟ وما هي أوجه هذه المركزية وأسبابها ودلالاتها ومفاعيلها وما يترتب عليها من استحقاقات؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة سوف يساعدنا على تفهم الكثير من المتناقضات المرتبطة بهذه القضية منذ نشأتها حتى وقتنا الحاضر، وبالتالي يساعدنا على رسم السياسات والاستراتيجيات المناسبة للتعامل معها.

لقد تم تقديم مبررات كثيرة، جغرافية واقتصادية وجيوسياسية لتوضيح حقيقة هذه المركزية، لكننا، مع إقرارنا لكل هذه الأسباب، لا نرى أنها تفسر الصراع بكافة جوانبه وتعقيداته.

إن العامل الحاسم والأكثر أهمية في تحديد مركزية هذه القضية يعود إلى البعد الديني الواضح لها منذ اليوم الأول لنشوئها، فدولة إسرائيل قامت على أساس تصورات دينية، أو على توظيف سياسي لهذه التصورات، والدعم الغربي الكبير لهذا الكيان يستند إلى خلفيات دينية كذلك،[1] ومن ناحية أخرى فإن المطالبة العربية بفلسطين ومقاومة المشروع الصهيوني في المنطقة يستند كذلك إلى بعد ديني إسلامي عميق.

إن الإقرار بهذه المقدمة يدفعنا نحو سؤالين مهمين:

كيف يؤثر الدين في السياسة وما هو شكل هذا التأثير؟.

ولماذا اتفقت المسيحية واليهودية على دعم المشروع الصهيوني في فلسطين على الرغم من العداوة القديمة بينهم، وكيف تم ذلك؟

كيف يؤثر الدين بالسياسة:

1- حول علاقة الدين بالسياسة:

ليس الدين، أو ما هو في حكم الدين من منظومات اعتقاديه، بعيد عن السياسة وإن كان يبدوا كذلك للكثيرين اليوم، لكن الحقائق التاريخية تشير إلى عمق وقدم الترابط بين الدين والسياسة، إن كل الأنظمة السياسية أو التيارات السياسية الفكرية تعود بأصولها الأولى إلى نوع من المعتقد الديني، أو ما هو في حكم الديني. قد يكون من الصعب في يومنا هذا أن نتبين صحة مقولة من هذا النوع ، ذلك أن اختلاط المفاهيم السياسية وتداخلاتها المختلفة في عالمنا المعاصر تجعل من الصعب بمكان أن نعود بأي من النظريات أو التيارات السياسية إلى أصلها الأول أو صورتها الأولى التي تتيح لنا أن نلقى نظرة إلى ما هو أعمق مما يبدو لنا في ظاهر الأشياء، ألا و هو الأساس الديني والاعتقادي الذي تشكل هذه التيارات انعكاساً له في الواقع. لكننا مع ذلك سوف نقوم بمحاولة بسيطة، علّنا نوضح هذه العملية، مع إقرارنا بأن هذا الموضوع هو موضوع بحث مستقل وأكثر تفصيلية. لكننا سوف نحاول أن نلقي عليه بعض الأضواء وسوف نكون مضطرين للحديث عن المفاهيم والنظم السياسية في أصولها الأولى وفي حالتها الخام الغير معالجة تاريخياً أو سياسياً.

إن إي نظام سياسي يمثل، على المستوى الحضاري العام امتداداً لرؤية حضارية واحدة تعكس فهماً متكاملاً ومنسجماً للحياة على كافة المستويات، فالسياسة والاجتماع والعلوم والاقتصاد والفلسفة والأخلاق هي في المنظومة الحضارية الواحدة تعبير عن جوهر واحد يمثل المعتقد الديني محتواه الأبرز. بالتالي فليس غريباً أن يكون النظام السياسي أو النظرية

السياسية هي تعبير عن مبدأ عقدي ديني. إن النظام السياسي والإداري والاجتماعي في المدينة اليونانية القديمة (بوليس) هو تمثيل لرؤيتهم لنظام الكون كما عبرت عنه (التيوغونيا)[2] ذلك أن الفكر اليوناني " يفترض، مسبقاً تقابلا، تشابهاً – بالمعنى الهندسي – بين تنظيم الكون وتنظيم المجتمع وتنظيم الفرد"[3] وإن الديمقراطية اليونانية ذاتها كانت محكومة لهذه النظرة " الكسمولوجية".

وكذلك فإن أنظمة الحكم المطلقة ذات الطابع الملكي الإمبراطوري، فهي تقوم منذ عهود الفراعنة المصريين أو أباطرة الرومان أو في النظم الملكية في أوروبا في عصورها الوسطى مروراً بالقيصرية الروسية ووصولاً إلى الإمبراطور الياباني – مع اختلاف التفاصيل– ما هي إلا تمثيلات مختلفة لعقيدة حلولية توحد فيما بين الإرادة الإلهية الحاكمة والفرد الحاكم، فيصبح هذا الفرد هو الممثل للإرادة الإلهية المتجسدة التي لا تحدها حدود ولا يعلو عليها شيء، وقد استمرت هذه العقيدة في أوروبا عبر دمج المفاهيم الحلولية السياسية لأباطرة الرومان مع معتقدات المسيحية والتصورات التالية عن المسيح كتجسيد للآله، ودور الكنيسة في المنظومة الكاثوليكية، وأنتجت عبر تحولاتها التاريخية، الشكل المسيحي للملكية الأوروبية التي استمرت حتى عهد الثورات في القرن الثامن عشر.[4]

تذهب التصورات السنيّة السياسية– كما أقرتها النصوص المعتمدة وكما أفرزتها التجربة التاريخية– إلى التأكيد على مبدأ التعالي والانفصال على مستوى الفرد والحضور على مستوى النص. فالخليفة أو الحاكم الإسلامي لا يمثل تجسيداً ولا يعبر عن أي شكل من أشكال الحلولية، لكنة يستمد

شرعيته وحاكميته من حاكميّة النص الذي يمثل حاكميـة الله التـي هـي الحاكمية الأصل المتعالية.

أما كافة النظريات السياسية اللبرالية الحديثة فهي تمثل نفي المبدأ الإلهـي المتجسد سياسياً سواء في الفرد وداخل الفرد، أو نفي المبدأ الإلهي المتجسد في النص وخارج الفرد، وتكرس حاكمية الفرد الإنسان كبـديل للحاكميـة الإلهية، مما يجعلها كعقيدة سياسية تكرس مبدأ تأليه الإنسان.

فالنظام السياسي أيّ كان شكله فهو قائم على مبدأ علوي ونوع من المعتقد الديني، أو هو تمثيل لشكل من العلاقة مع هذا المعتقد حتـى ولـو كانـت علاقة نفي، لكن علاقة النفي هذه لا تخلو من تأكيدات مبطنـة ومقاربـات بعيدة.

2- <u>علاقة المعتقد الديني بالحدث السياسي:</u>

على مستوى آخر نجد أن المعتقدات الدينية تشكل مرجعاً لأهم مفـردات السياسية الدولية وأساساً لمعظم أحداث التاريخ الكبرى. إن تاريخ صـعود وهبوط الممالك و الإمبراطوريات القديمة مـرتبط بـصعود أو هبـوط منظومات دينية معينة، ولعل أبز مثال على ذلك هو الـصعود التـاريخي السريع للدولة الإسلامية في أقل من نصف قرن حيث كان العامـل الأهـم لقيام هذه الدولة المترامية الأطراف هو الدين الجديد الذي حملتـه القبائـل العربية في الجزيرة العربية فحملها إلى أقصى حدود العالم. وقـد قامـت الحروب الصليبية لأسباب دينية وكذلك فإن اكتشاف القارة الجديدة والهجرة إليها كان مرتبطـاً بتـصورات دينيـة، فالبروتـستانت البيوريتـانيون (التطهريين) الذين فشلوا أوروبياً في التحقيق الكامل لتصورهم الخاص عن

الدولة، ذهبوا إلى القارة الجديدة لكي يبنوا دولتهم التوراتية، وقد بنيت أول المستعمرات في الولايات المتحدة على أيدي البيوريتانيين.

وعلى الرغم من أن تأثير المعتقدات الدينية لا يمكن تلمسه في الممارسات والمفاهيم السياسية اليومية إلا من خلال رؤية تحليلية عميقة وبشكل غير مباشر لكننا كثيراً ما نرى كيف أن الحروب غالباً ما تبرّر بأسباب دينية، وقد شهد العالم في العقدين الأخيرين نماذج عديدة من هذه الحروب المبررة دينياً في القوقاز والبلقان وجنوب السودان وأيرلندا وغيرها من بقاع العالم.

وإن التحالفات التي تنشأ على أثر اندلاع هذه الحروب مرتبطة كذلك بطبيعة المعتقدات ومدى تقاربها.

ولعل المثال الأبرز والأكثر وضوحاً والأقرب لتبرير الحروب بأسباب دينية هو حرب الخليج وما تلا ذلك من احتلال أفغانستان و العراق حيث كانت بعض وسائل الإعلام في الولايات المتحدة تقدم نماذج واضحة لهذه التبريرات والتفسيرات، فمنذ اللحظة الأولى لوقوع هجمات 11 سبتمبر أضفى الرئيس بوش على ما يجري صفة النزاع الكوني والأبدي، الذي ينص عليه الإنجيل والتوراة، بين المؤمنين والدجالين أتباع الشيطان. وقد صرح عقب ساعات قليلة من وقوع الهجمات إن تلك الهجمات تمثل "انطلاقة الحرب الكونية ضد الشر"، وأضاف أن الولايات المتحدة مدعوة لكي تتحمل "مهمتها التاريخية" وأن "الرد على هذه الهجمات هو تخليص العالم من الشر". وشدد على أن النصر مؤكد في هذه الحرب لأن الله يقف إلى جانب قوى الخير التي تمثلها الولايات المتحدة. وردد حينها خلال

خطاب بثته وسائل الإعلام المزمور التوراتي رقم 23 الذي يقول "تقدم إلى الأمام ودافع عن الحرية وعن كل ما هو خير وعادل في عالمنا."[5]

وقد برز بشكل جلي خلال هذه الأحداث الدور الكبير والمؤثر الذي يلعبه رموز الكنائس الأمريكية في تبرير الحرب والتحريض عليها، ومن أبرز هؤلاء نذكر تيم لاهاي الزعيم الإنجيلي الأكثر تأثيراً في الولايات المتحدة على مدى السنوات الـ25 الأخيرة من القرن العشرين. وقد ظهر لاهاي مرات عدة على شاشات التلفزيون والبرامج الحوارية الإذاعية للتصريح بأن الحرب سواء في أفغانستان أو العراق ضرورية بالنسبة للمؤمنين. وذهب إلى حد القول خلال العديد من المناسبات إن" العراق يشكل نقطة محورية خلال أحداث نهاية العالم" حيث إن العراق سيلعب دورا أساسيا في معركة هرمجدون التي ستقع في مجدو في فلسطين

وقال في سلسلة مقالات وتصريحات صحفية بوصفه أكبر خبير ديني في شؤون الحشر ويوم القيامة إنه "بعد غزو العراق وتخليصه من حكم الطاغية وإعتاق شعبه وإعادة إعماره سيصبح العراق الدولة العربية الوحيدة التي لن تدخل في حرب ضد إسرائيل وضد جيش الله خلال الحرب الأخيرة ".[6]

أما بات روبرتسون، وهو مؤسس ورئيس شبكة التلفزيون المسيحية CBN ومؤسس بعض المراكز والجامعات الخاصة بتدريس المسيحية، فقد ركز على الربط بين صدام حسين و"نبوخذ نصر"، وهو الملك الكلداني الذي حكم بابل خلال القرن الخامس قبل الميلاد وقام بغزو القدس وأحرق هيكل سليمان وأخرج اليهود من أرضهم وقام بتهجيرهم خلال ما يعرف بالسبي

البابلي. وقد نصت عليه التوراة (العهد القديم) في رؤية دانييل (إصحاح4:4-1).

وكذلك جيري فالويل، رئيس قساوسة كنيسة طريق توماس المعمدانية في لينش بورغ بولاية فيرجينيا، وهو مؤسس بعثات فالويل المسيحية ومستشار ومؤسس جامعة الحرية الدينية بفيرجينيا أيضا، ولديه برنامج تلفزيوني وآخر إذاعي. وقال مرة تلو الأخرى عقب هجمات 11 سبتمبر/ أيلول إنه يتعين على الرئيس بوش والقوات الأميركية تعقب أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة وجميع من وصفهم بالإرهابيين في جميع أنحاء العالم مهما استغرق ذلك من وقت وقتلهم باسم الله. كان فالويل يشدد خلال عظات يوم الأحد على ضرورة تأييد قرار الحرب لأنها حرب مقدسة، وقال "إننا عندما نشن الحرب في العراق سنقوم بذلك لإعادة المسيح إلى الأرض لكي تقوم الحرب الأخيرة التي ستخلص العالم من جميع الكافرين ." [7]

إن العلاقات بين الجماعات والدول تتأثر بمستوى التقارب في المعتقدات، وإن حالة من الفرز العالمي على أساس مرجعية الهوية الدينية يبدوا اليوم كأحد أبرز توجهات القرن الجديد. بل أن للمذاهب الدينية والكنائس وعلاقة المرشح السياسي بها دور كبير وملحوظ في أكبر الديمقراطيات الحديثة في الولايات المتحدة الأمريكية. وهكذا فإن القول بتأثير المعتقدات الدينية في السياسة العالمية قد صار أمراً ملحوظاً ولم يعد بدعاً من القول يستدعي منا أن نسترسل في سرد الأدلة والبراهين.

دور المعتقدات الدينية في السياسة العالمية المعاصرة.

إن نقطة الثقل ومركز التأثير بالنسبة للمعتقدات الدينية في السياسة يختلف من مرحلة تاريخية إلى أخرى، من حيث قوة تأثير جانب من جوانب المعتقدات الدينية في السياسة، ولو حاولنا أن نحدد العامل الديني الأبرز في التأثير على مجمل السياسات الدولية المعاصرة لقلنا أنه يتمثل بالرؤية الأخروية أو لنقل الرؤية القيامية التي يعبّر عنها المفهوم الغربي (Eschatology). إن الرؤية القيامية اليوم هي أكثر العوامل تأثيراً في تحديد التوجهات السياسية للدول والشعوب و الحضارات الكبرى. فما هي هذه الرؤية وكيف تؤثر في السياسة الدولية؟.

الرؤية القيامية هي تعبير عن سمة عامة يتسم بها الفهم الديني للتاريخ كحركة تراجعية نحو نهاية محتومة للحياة الإنسانية، وهذا الفهم وإن كنا نجده في كل المنظومات التقليدية لكنه يشكل سمة خاصة لأديان" العقيدة الإبراهيمية" التوحيدية المتمثلة في الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، وتشترك هذه الديانات في رسم تصور واحد للشكل البياني لحركة نهاية التاريخ، لكنها تختلف في جوانب مفصلية بالنسبة لمحتوى هذه الحركة و تفاصيلها. فالصورة البيانية المشتركة لهذه الحركة تتفق في تحديد المسار الانحداري للتاريخ بشكل عام وصولاً إلى نقطة محددة في نهاية هذا الانحدار، تجعل من تدخل بعض القوى اللاتاريخية ضرورة حتمية لإعادة النظام العام للحياة بأكملها ثم يكون بعدها عصر ذهبي يطول أو يقصر تعود فيه الحياة إلى شكلها الفطري الأول ويتحقق فيها النظام والعدالة، ثم يكون بعدها انهيار أخير ونهاية للحياة الإنسانية على الأرض.

وتتفق التصورات في الأديان الثلاثة على بعض المفاصل المهمة كالحركة التراجعية للتاريخ نحو نهاية محتومة وفي تحديد نوع الكوارث الاجتماعية المرافقة وفي وصف بعض الأحداث المرتبطة ببعض الأشخاص والأمكنة، لكنها تختلف في تأويل هذه الأحداث. وحقيقة التشابه تعود كما هو الحال في كل حالات التشابه الأخرى في الديانات الثلاث، إلى الأصل الواحد لهذه الديانات، فالحقيقة في هذه الديانات واحدة وهي مشمولة في الإسلام لكونه الشكل الأخير لهذه الصورة التي حفظتها إرادة الله قبل جهود الإنسان، لكن ما يعنينا في هذه الدراسة هو التأويل المختلف لهذه الحقائق، بغض النظر عن أي منها هو الأصدق والأصح، لأن ذلك شأن مختلف وغرض مغاير لما نبتغيه من هذه الدراسة، إن ما يعنينا الآن هو تأثير هذه المعتقدات في واقعنا المعاصر وفي السياسات الدولية والإقليمية كونها تمثل معتقدات يؤمن بها مئات ملايين الناس وكونها تلعب دوراً في تحديد توجهاتهم وغاياتهم وأشكال نشاطهم الهادف.

1- التاريخ ونهاية الزمان في الرؤية اليهودية:

تنطلق الديانة اليهودية في فهم التاريخ من حقيقة الأصل السماوي للإنسان الذي عاش في الفردوس في حالة من النعيم والصفاء المطلق حتى انتهت هذه الفترة الزمنية بالمعصية التي نزل على أثرها الإنسان إلى الأرض وعاش فيها قروناً طويلة أيضا في حالة من النعيم والسلام كان فيها الإنسان يعيش دهوراً طويلة، لكن القانون الأرضي للحياة يختلف عن قانون الفردوس، فالحياة الأرضية هي عملية مستمرة من التفسخ والانحلال وقد مر التاريخ البشرى في مراحل وصل فيها الانحلال إلى حدود بعيدة أدت إلى كوارث كبرى كالطوفان ودمار بابل.

حتى هذه اللحظة لا تختلف الديانات المسيحية والإسلامية مع اليهودية إلا في بعض التفاصيل، لكن الاختلاف يظهر بعد ذلك عندما تقوم اليهودية بربط التاريخ "بمسيرة شعب الله المختار" وذلك عبر تحقيب التاريخ إلى مراحل مرتبطة مباشرة بشكل الوجود اليهودي بين التجمع والشتات (ما يعرف في اللغات الأجنبية بالدياسبرا وفي العبرية غالوت) فالتاريخ برمته يصبح في الرؤية اليهودية مرتبطاً بثنائية الشتات اليهودي و العودة إلى الأرض المقدسة، ولأن المعتقدات اليهودية قد مرت بمراحل مختلفة وتطورت تبعاً لهذه المراحل فإن تتبعها يحتاج إلى دراسة مفصلة[9]، لكن آخر ما استقرت علية المعتقدات الأخروية اليهودية هو " المشيحا " المخلص كفكرة مركزية تتمحور حولها كل المعتقدات اليهودية المتمثلة بالعودة إلى الأرض المقدسة وبناء الهيكل و هزيمة الشر في الملحمة الكبرى "هرمجدون" وقيام "مملكة الرب"[10]. وقد مرت هذه العقيدة اليهودية بمراحل وأنماط مختلفة من التأويلات والتجسّدات التاريخية[11]، لكنها تبلورت أخيراً في المعتقد الصهيوني الذي أصبح معتقدا مهيمناً وواقعاً متجسداً على أرض الواقع[12].

2- التاريخ ونهاية الزمان في الرؤية المسيحية:

تلتقي المسيحية مع اليهودية في تقرير المقدمات المرتبطة بالأصل السماوي للإنسان وبالحركة التاريخية كمسيرة انحطاط نحو التفسخ والانحلال لكنها تركز على نقطتين أساسيتين هما، الخطيئة كأصل للوجود الأرضي للإنسان، فالإنسان يولد وهو حامل لوزر الخطيئة الأولى التي أفقدته الفردوس، وقد جاء المسيح ليخلص الإنسان من وزر هذه الخطيئة

عبر "عذاباته على الصليب". وسوف يكون هناك عودة أخرى للمسيح ليعاقب العصاة ويكافئ المخلصين ويقيم مملكته التي ستمتد لألف عام.

وتعود المعتقدات الأخروية المسيحية إلى أسفار الرؤى الواردة في العهد القديم ومن ثم إلى أهم النصوص المسيحية الأخروية وهي "رؤيا يوحنا" وترتبط نهاية الزمن في المسيحية، كما أشرنا، بالعودة الثانية للمسيح وبحربة مع المسيح الدجال أو عدو المسيح Antichrist وإقامة عهد من الخير والسلام والصلاح يستمر لألف سنة بعد حرب طاحنة تتحدث عنها رؤيا يوحنا بأنها سوف تحدث في موضع يسمى هرمجدون وتعني "سهل مجدو" في فلسطين، وقد تحول هذا الاسم في الاستخدام المسيحي اليهودي الغربي إلى رمز للحرب الطاحنة المدمرة التي لا تبقى ولا تذر، يقول صاحب رؤيا يوحنا واصفاً هذه المعركة ونزول المسيح " أنه شاهد السماء قد انفتحت ونزل منها فارس على فرس أشهب يدعى أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم ويحارب وعيناه كلهيب النار وعلى رأسه تيجان كثيرة، متسربل بثوب مغموس بدم، ويسمى كلمة الله، ومعه جند يتبعونه على خيل شهب يلبسون القز الأبيض النقي".

3- التاريخ ونهاية الزمان في الرؤية الإسلامية:

تحتل الرؤية القيامية في الإسلام مكانة مركزية وهناك آيات عديدة في القرآن الكريم تشير إلى اقتراب الآخرة ونهاية الزمان (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ) (القمر 1) (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) (الأنبياء 1) (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (النحل 1) وكل هذه الآيات يستفتح بها القرآن السور الواردة فيها لتأكيد الإحساس بالبغتة والمفاجئة. وقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

بعثته الشريفة هي من مقدمات الساعة وهي من علاماتها فيقول: (بعثت أنا والساعة كهاتين)[15] ويشير عليه الصلاة والسلام بإصبعيه. وقد أفردت كتب السنن المعروفة فصولاً مطولة في الحديث عن علامات الساعة وما يرافق ذلك من فتن وكوارث كونية واجتماعية, لكننا نود أن نبرز منها ما هو متعلق بموضوعنا ألا وهو قضية فلسطين. حيث نجد أن فلسطين هي في قلب الحدث الأخروي القيامي كما هو وارد في السنة النبوية، بل أن الرسول قد ربط بين قيام الساعة ومعركة فلسطين مع اليهود (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)[16] وأن السيد المسيح عليه السلام يقتل الدجال عند مدخل اللد وهي من مدن فلسطين. وهناك الكثير من التفسيرات المقبولة والمُؤيدة بالحدث التاريخي التي تربط الآية الكريمة في سورة الإسراء بالحدث الجاري على أرض فلسطين وبالوعد الإلهي للمسلمين بالنصر المبين (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرا) (الإسراء 7).

إننا كمسلمين لا نرى معركتنا مع الحركة الصهيونية إلا في هذا السياق القرآني المعزز بالسنة النبيوية الشريفة، وليس في هذا إي نوع من القدرية السلبية، بل هو ربط للحدث التاريخي بالرؤية التاريخية من منظور إسلامي حيث تتمازج وتتكامل الخيارات الإنسانية الحرة، مع الإرادة الإلهية المقررة.

من الواضح عند النظر في هذه التصورات القيامية في الـديانات الـثلاث مركزية فلسطين وأهميتها في تحقق السيناريو القيامي الأخروي، ولكن هل كان لهذه المركزية القيامية دور فعلي تؤيده الوقائع التاريخيـة؟ هـذا مـا سنحاول أن نوضحه من خلال الاستعراض السريع لتاريخ قيـام الدولـة الصهيونية في فلسطين والمقدمات التي سبقت ذلك وحقيقة الـدعم الكبيـر الذي قدمته الدول الغربية من أجل قيام هذه الدولة.

التحولات المسيحية اليهودية وقضية فلسطين:

باعتقادي أن أهم حدثين دينيين حصلا في العالم الغربي وكان لهـم الأثـر الأكبر في صناعة العالم الحديث بكل متناقضاته هما مـا صـار يعـرف بالإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر، ثـم تحـولات الباطنيـة اليهودية في القرن السابع عشر والثامن عشر. فبدون معرفتنا للتحـولات البروتستانتية لا يمكننا فهم الرأسمالية كما أوضح عالم الاجتماع الألمـاني ماكس فيبر، وبدون معرفة تحولات الباطنية اليهودية مع شـبتاي زيفـي وجاكوب فرانك لا يمكننا أن نفهم حتى النهاية ماركس أو فرويد أو غيرهم من المفكرين اليهود الذين كان لهم إسهام كبير في صنع الحداثة الغربيـة. لكن دراسة هذه التحولات وآثارها الشاملة يتطلب بحثاً منفرداً، ما يعنينـا الآن هو محاولة رصد آثار هذه التحولات على قضية بحثنا وهي الصراع على فلسطين.

لقد شكلت الحركة البروتستانتية في القرن السادس عشر انقلاباً في كثيـر من المفاهيم المسيحية ومن ضمنها وربما أهمها الموقف من اليهود.[17] لقـد كان اليهود وعلى مدار عقود طويلة من عمر المسيحية في أوروبا يمثلون أعداء المسيح وقتلته وقد شهد القرن الرابع عشر والخامس عشر موجات

من التقتيل والتهجير والعزل في بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وغيرها من البلدان[25]، وقد كانت النظرة المسيحية التقليدية لليهود تنص على أن الأمة اليهودية قد انتهت بمجيء المسيح، وأن خروج اليهود من فلسطين هو عقاب لهم على صلب المسيح وأن خلاصهم هو في اعتناق الدين المسيحي. لكن تحولات كبرى حصلت في الوعي المسيحي الأوروبي مع بدايات القرن السادس عشر غيرت كلياً النظرة القديمة إلى اليهود والمسألة اليهودية وعدلت جذرياً الموقف منهم على المستوى الرسمي والشعبي، مع استمرار لبقايا النظرة القديمة على مستويات شعبية أضيق، ويمكننا أن نحصر هذه التحولات في العناوين التالية:

1- لقد تحولت فلسطين، أرض المسيحية المقدسة، التي شنّت الكنيسة حملاتها الصليبية من أجل استردادها، إلى فلسطين أرض الميعاد، ومملكة إسرائيل.

2- اكتسبت كلمة إسرائيل الواردة في الكتاب المقدس معنى جديداً يشير إلى كل الجماعات اليهودية في العالم في حين لم تكن تعنى سابقاً سوى كونها اسماً لدين.

3- تحولت الفكرة القائلة باستعادة اليهود لفلسطين إحدى أهم أفكار الكتاب المقدس عند المسيحيين، في حين لم تكن قبل ذلك سوى تفسيراً يهودياً للعهد القديم.

4- هيمن التفسير القائل بارتباط نهاية العالم بعودة المسيح الثانية المرتبطة بدورها بعودة اليهود إلى فلسطين، وصارت هذه القضية في تحولات الوعي المسيحي الغربي قضية تتحقق هنا والآن بعد أن كانت قضية بعيدة في الزمان.[26]، كما أن عودة اليهود إلى فلسطين لم تحافظ على

صورتها القديمة المتمثلة في عودتهم إليها كمسيحيين، إنما بعودتهم إليها كيهود. لقد أسست هذه التحولات إلى ظهور ما صار يعرف بعد ذلك بالمسيحية الصهيونية في القرن السابع عشر في بريطانيا، هذه الحركة التي تعززت مع الهجرات الواسعة إلى الولايات المتحدة، الدولة التي كان للمعتقدات المسيحية الصهيونية دوراً مهماً في تأسيسها[27].

في مقابل ذلك كانت التحولات في المعتقدات اليهودية حول المشيحا المخلص تتحول من كونها معتقدات آخر الزمان البعيدة إلى معتقدات تتجسد بأفراد أحياء يقودون هذا الخلاص اليهودي، كما تحولت فكرة انغماس المخلص في الخطيئة التي تمثلت في الوعي اليهودي بتحول شبتاى زيفي " المزعوم " إلى الإسلام، إلى فكرة خروج اليهودي من عزلته في مرحلة ما يسمى بالتنوير اليهودي (هاسكالا) في القرن الثامن عشر واندماجه" المزعوم "في ديانات الأغيار " الغويم" مع الحفاظ على هويته ومعتقداته اليهودية من أجل جر العالم إلى الخطيئة الضرورية لظهور الخلاص والمخلص، وقد جاءت الفكرة الصهيونية لتمثل آخر تجسيد لهذه التحولات التي جعلت من قيام دولة إسرائيل مقدمة لظهور الخلاص والمخلص.[28] ولتخرج اليهود من مرحلة العزلة التي فرضوها على أنفسهم بانتظار الخلاص إلى مرحلة العمل من أجل تحقيق الخلاص في نموذجه الصهيوني.

لقد ترتب على الإصلاح البروتستانتي تحول في الرؤية القيامية المسيحية لصالح الرؤية القيامية اليهودية، لقد كانت هذه هي بحق لحظة تهويد العالم، ولحظة الانتصار الكبير لليهودية العالمية. وتهويد العالم لم يتم بالحركة الصهيونية أو بالماسونية أو بغيرها، بل أن هذه الحركات جميعها لا تفسر

هذه الهيمنة، إنما هي -إلى حد كبير- نتاج هذه الهيمنة التي تتبدى أول ما تتبدى على المستوى الثقافي، لأن تهويد العالم هو تهويد لعقل العالم قبل كل شيء وتكريس للرؤية اليهودية للعالم في الغرب ومن ثم العمل على تعميم هذه الرؤية عالمياً، إن هذه اللحظة المعرفية غالباً ما يتم تجاهلها وإهمالها مع أنها اللحظة الحقيقية للسيطرة اليهودية على العالم التي لم يكن لها إي وجود مادي في تلك اللحظة لكنها كانت قد اكتملت معرفياً وعشعشت في عقل الغرب. وفي هذه اللحظة بالذات اكتسبت أرض فلسطين ومعركة فلسطين التي نعيشها اليوم مركزيتها، لقد صارت أرض فلسطين - التي هي مسرح كل السيناريوهات الأخروية - صارت تمثل بؤرة اهتمام عالمي لكونها مرشحة منذ تلك اللحظة لتكون نقطة تقاطع توجهات تيارات أيديولوجية كبرى ودول وحكومات عالمية.

إن نظرة سريعة على الفكر والأدب الذي ساد في أوروبا منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ينبئنا بعمق التحولات التي حصلت في الوعي الأوروبي، وقد قدمت الباحثة رجينا الشريف في كتابها القيّم "الصهيونية غير اليهودية" الكثير من الأمثلة على هذه التحولات العميقة، فاليهودي المرابي الجشع الذي كان يبدو لنا في مسرحية شكسبير " تاجر البندقية " قد تم استبداله باليهودي الذي يحمل عبر معاناته وآلامه وتشرده, العظمة الكامنة في عبقرية الشعب اليهودي، لقد كتب اللورد بايرون في قصيدة له يخاطب اليهود:

"أيتها القبلية الكثيرة التجوال وذات الصدر المرهق كيف
ستستقرين و تشعرين بالراحة ؟
إن لليمامة عشها وللثعلب وكره

وللبشرية وطنها– أما إسرائيل فليس لها إلا القبر"[21]
ويمثل هذه الروحية المتعاطفة مع اليهود كتب والتر سكوت روايته الشهيرة " إيفانهو" وكذلك وليم ورد زورث في قصائده " أغنية لليهودي المتجول " و" أسرة يهودية" و كذلك كتب روبرت براونيغ و جورج إليوت وغيرهم[22]
ونجد تعاطفاً واضحاً مع اليهود عند فلاسفة القرن السابع عشر والثامن عشر البارزين أمثال جون لوك وإسحق نيوتن وجوهان جوتفرد وهردر وكانت وباسكال وغيرهم ومناصرة لحقهم المزعوم في العودة على فلسطين.[23]

لقد تبدت أبرز التحولات عبر التحولات العقدية المركزية، والتي كان من أهمها أن المفهوم المسيحي عن الألفية المسيحية السعيدة التي كان القديس أوغسطين، وهو يعتبر أب اللاهوت المسيحي، قد اعتبرها متمثلة في الكنيسة المسيحية الكاثوليكية – العالمية – ذاتها. لقد صارت هذه الألفية السعيدة مرتبطة بعودة اليهود إلى فلسطين وبناء الهيكل كمقدمة لعودة المسيح.[24] وكذلك تحولت فلسطين التي كانت في الوعي المسيحي تمثل الوطن المقدس الذي أورثه عيسى لأتباعه، صارت تمثل الميثاق الذي أعطاه الرب لشعبه المختار في العودة إلى فلسطين، أما اليهود فلم يعودوا في الوعي المسيح هم الشعب الذي عاقبه الرب بأن فرض علية التشرد لأنه لم يقبل دعوة المسيح، أنما صار الشعب المختار الذي يجب مساعدته بكل السبل للعودة لأرض الميعاد. في عام 1649 قام البروتستانت البيوريتان (التطهريين) في أمستردام بكتابة الاسترحام التالي إلى الحكومة الإنجليزية: "ليكن شعب انجلترا وسكان المناطق المنخفضة أول من يحمل أبناء وبنات إسرائيل على سفنهم إلى الأرض التي وعد بها أجدادهم إبراهيم وإسحق

ويعقوب لتكون إرثهم الأبدي"[18] لقد كان ذلك تحولا وانكساراً كبيراً في الوعي المسيحي.

إن الإيمان المسيحي البروتستانتي بعودة المسيح قد صار مشروطاً بقيام دولة إسرائيل في فلسطين، لذلك فإننا نرى أن التبشير بهذه الدولة قد صدر عن هذا التيار المسيحي قبل أن يفكر فيه اليهود أنفسهم بثلاثة قرون[19].

إن هرتزل مؤسس الصهيونية كان يسعى لقيام دولة يهودية في أوغندا أو الأرجنتين أو كندا أو العراق أو أي بقعة أرض أخرى، لكن المسيحية الصهيونية هي التي لعبت الدور الأكبر في تحويل توجهات هرتزل والصهيونية نحو فلسطين وقد انتقدوا الموقف المتساهل لهرتزل في هذه القضية.

إننا نستطيع أن نجد المقدمات الصهيونية عند العديد من ممثلي البروتستانتية الإنجيلية في فترات مبكرة من القرن التاسع عشر. لقد روّج القس داويت مودي لنظرية شعب الله المختار، و ألف القس ويليام يوجين بلاكستون كتاب " المسيح آت" عام 1887 ليؤكد على نظرية الحق اليهودي في فلسطين. أما أشهر السياسيين البريطانيين الذين مثلوا هذا التيار المسيحي الصهيوني – قبل الولادة الرسمية للصهيونية- فهو عضو البرلمان البريطاني اللورد شافتسبري الذي نشر عام 1839 في إحدى الدوريات الشهيرة مقالاً يشجع عودة اليهود إلى فلسطين بأعداد كبيرة، وذلك قبل 57 عاماً على ولادة الصهيونية.[20]

في سياق هذه التحولات وتفاعلاتها المختلفة يمكن أن تتدرج كل المحاولات التي دعت في فترة مبكرة جداً وقبل قيام المنظمة الصهيونية إلى تأسيس دولة إسرائيل، وهنا نود الإشارة إلى أن نظرية المصالح الاستعمارية التي

تم على أساسها تفسير الدعم الكبير الذي لاقته الحركة الصهيونية ومن ثم الدولة العبرية الوليدة إلى يومنا هذا، هي نظرية منقوصة وغير صحيحة.

لقد كتب نابليون أثناء حملته على مصر وبلاد الشام يخاطب يهود العالم قائلاً:

"من بونابرت القائد الأول في جيوش الجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا، إلى الورثة الشرعيين لأرض إسرائيل.

الإسرائيليون هم الأمة الفريدة التي لم تستطع آلاف السنين وشهوة الفتح والطغيان أن تجردهم سوى من أراضيهم، و لكن ليس من اسمهم وكيانهم القومي... ألا ثوروا على العار يا أيها المشردون وأعلنوها حرباً لم يحدث مثلها في تاريخ البشرية، حرب تقوم بها أمة اُعتبرت أرضها- بجرة قلم من الحكام- غنيمة لأعدائها الذين يريدون بفظاظة تقاسمها فيما بينهم وكما يشاءون. إن فرنسا تنتقم لعارها وعار أبعد الأمم التي تركت منسية وقتاً طويلاً تحت أغلال العبودية، و تنتقم للعار الذي أحاق بكم خلال ألفي سنة.

إن الأمة العظيمة التي لا تتاجر بالشرف، كما فعل أولئك الذين باعوا أجدادكم إلى كل الأمم تناديكم الآن من أجل أن تستلموا منها ما قد احتلته حتى الآن وبحصانة ومساعدة هذه الأمة، كي تبقوا أسياد البلاد، و لكي تدافعوا عنها ضد كل الذين يريدون غزوها.

لقد جعل الجيش الصغير الذي بعثتني العناية الإلهية به إلى هنا من القدس مقر قيادته الرئيسي. إن هذا الجيش الذي يقاد بالعدل ويصحبه النصر سوف ينتقل بعد أيام قليلة إلى دمشق، المدينة المجاورة التي تهدد مدينة داوود.... فها قد سنحت الفرصة التي قد لا تتكرر ثانية خلال ألفي سنة، من أجل المطالبة باسترداد حقوقكم المدنية بين سكان المعمورة و التي

حُرمتم منها بشكل مخز طيلة ألفي سنة، ومن أجل المطالبة باستعادة كيانكم السياسي كأمة بين الأمم وبحقكم الطبيعي في عبادة يهوه بحسب إيمانكم علناً ومن غير شك، إلى الأبد"[13]

إن روح الخطاب النابليوني هذا واضح كل الوضوح وهو يستند في منطقة الداخلي وفي بنيته إلى مجموعة معتقدات دينية واضحة وليس إلى مصالح اقتصادية.

لقد كان الوعد "البلفوري" النابليوني مقدمة لمجموعة من الوعود المتتالية التي نجد مثيلاتها في وعود مقدمة من القيصر الألماني وكذلك من قبل أحد وزراء حكومة القيصر الروسي وصولا إلى بلفور البريطاني.[14]

أما في عالمنا المعاصر فإن الأبعاد الدينية الأخروية قد وصلت إلى أعلى درجات الوضوح في خطاب المحافظين الجدد منذ أيام الرئيس الأمريكي رونالد ريغن وصولاً إلى الرئيس جورج بوش الابن الذي يمثل خطابه السياسي خطاب مبشّر عالمي أو نبي جديد، لا خطاب رئيس أكبر دولة علمانية في عالمنا المعاصر. إن تصريحات بوش حول العناية الإلهية التي اختارته ليكون رئيساً للولايات المتحدة أولاً، ومن ثم التي اختارته ليحارب الإرهاب كذلك، والتي أرسلته ليحتل العراق وأفغانستان، والتي ربما ستختاره قريباً ليوجه ضربة عسكرية إلى إيران، إن هذا الخطاب لهو أوضح من أي تعليق.

حول حقيقة التناقض العالمي في عالمنا المعاصر.

أمام هذه الصورة ما هي حقيقة التناقض العالمي اليوم؟.

(إن التناقض العالمي والصراع اليوم هو صراع الأديان). هذا ما يذهب إليه الكثير من الكتّاب عند ملاحظته لتنامي دور المعتقدات الدينية في

الصراعات العالمية. لكننا لا نقر بذلك ولا نتفق معه ولم نهدف إلى تأكيده في بحثنا هذا كما قد يتبادر للذهن من الوهلة الأولى. إن أحد شقي هذا الصراع هو صراع ضد الدين، أي ضد الإسلام، لكننا لا نرى ولا نقر أن المعسكر الآخر هو معسكر ديني، مسيحياً كان أو حتى يهودي. إن الصراع اليوم هو صراع اللادين ضد الدين، هذه هي حقيقة الصراع القائم.

لقد انجلى المشهد العالمي عن حقيقة هذا التناقض والصراع العالمي الذي ما تبدل ولا تغير في الحقيقة، لكنه كان يأخذ أشكال ومسميات مختلفة، لكن حقيقتهُ وجوهرهُ واحد. فمنذ سقوط المعسكر الاشتراكي وانهيار المنظومة العالمية ثنائية القطبية، وانتصار الولايات المتحدة التي تقود المسكر الغربي الرأسمالي، بدأت هذه الدولة في الترويج لمسميات جديدة لتوصيف المشهد العالمي، فبعد أن تراجعت إلى الوراء مسميات من نوع الاشتراكية والخطر الشيوعي أو الرأسمالية والإمبريالية وغيرها من المصطلحات الشائعة في فترة الحرب الباردة، بدأت تظهر إلى الملأ مسميات جديدة من نوع الأصولية الدينية ونهاية التاريخ وصراع الحضارات والحرب على الإرهاب، ونود أن نلفت الانتباه إلى أن هذا المصطلح الأخير قد دخل ساحة التداول السياسي والإعلامي قبل أحداث 11 أيلول 2001. إن هذه المصطلحات هي تعبير عن مفاهيم ومعايير جديدة بدأت تحكم السياسة الدولية وهي مفاهيم واضحة الدلالات سواء بدلالاتها المباشرة أو الرمزية، وقد تُرجمت هذه المقولات في الواقع عبر تنامي العداء للإسلام والمسلمين وانتقال هذا العداء إلى حالة من الوضوح والسفور. إن هذا التغير لم يكن تغيراً مفاجئاً على الرغم عظم التحولات التي تمت في العقد الأخير من القرن العشرين وفي عقدنا الحالي، ونقصد بذلك أن الغرب الحديث وبحكم

مقولاته المؤسسة الكبرى محكوم لعدائه للإسلام بحكم عدائه للدين أصلاً وعدائه لتكريس المبدأ الإلهي في الوجود، كمبدأ في البناء الاجتماعي والحضاري. إن عداء الغرب اليوم للإسلام هو أكثر بكثير ربما مما كان عليه الغرب في زمن الحروب الصليبية. إن هذا الغرب لا يزال محكوماً لذات المقولات الكبرى التي حددت مصيره مع بداية الحداثة الغربية والتي كانت ستقوده حتماً إلى المواجه المباشرة مع الإسلام كآخر حصن وآخر حاضن للمبدأ الإلهي كمبدأ أول لبناء الحياة الإنسانية وهذا ما يحصل الآن وهذا ما قد بدأنا نلمسه بشكل يومي ومباشر.

لقد كتب الباحث والمفكر الإسلامي عبد الله النفيسي مؤخراً مقالة يلخص فيه حقيقة الصراع القائم بين الغرب وبين العالم الإسلامي يقول: " أدعي في هذه الورقة أن عدوانات الغرب على أمتنا الإسلامية عبر القرون لم يكن منطلقها يتوقف عند حدود السيطرة على المواد الخام التي تزخر بها جغرافية العالم الإسلامي .. ولا السيطرة على الممرات المائية .. وأزعم أن عدوانات الغرب على أمتنا سبق التكالب على النفط و سبق انتعاش التجارة الدولية ... ونقولها بكل صراحة بأنه على الحركة الإسلامية – بشتى راياتها ومسمياتها – أن تعي بأن الغرب يستهدفنا جميعاً .. إذ أن المستهدف هو الإسلام: كتابه ورسوله وشريعته ولغته وحركته وتجمعه البشري ومقدراته المادية والأدبية"[8]

أن زعماً كالذي يورده النفيسي قد صار ممكناً اليوم، لأن أحداث السياسة اليومية تؤكده و تبرره، لكن قولاً مثل هذا، لربما كان سيبدو مستهجناً قبل عشرين أو خمسين عاماً مع انه كان كذلك صحيحاً كما هو اليوم صحيح، لأن الأساس الذي قام عليه الغرب الحديث وبنى حضارته عليه هو العداء

للدين، والعداء للمبدأ الإلهي كأساس لتقرير حياة الإنسان وحضارته. لكن هذا الزعم لا يبرر الشق الآخر الذي يفترضة الكثيرين وهو أن الخصم على الجبهة الثانية هو دين آخر غير دين الإسلام.

لقد أفلح الغرب في القضاء على المسيحية في مجتمعه وأخرجها من دائرة المكونات الفاعلة للحياة الغربية، ونحن هنا لا نريد أن نقرر ولا أن نزعم أن هذا الصراع اليوم هو صراع الديانات، إن الديانات الحقة لا تتصارع بل هي تحمل في داخلها مبادئ تعايشها المشترك، إن ما تحدثنا عنه من معتقدات تهمين على الغرب اليوم ليست ديناً بالمعنى الذي نفهمه نحن المسلمون، إنها ليست مبدأً إلهياً منزهاً عن النزوات الإنسانية وليست منظومة متكاملة إلهية المصدر قادرة على تنظيم الدين والدنيا، وهي كذلك ليست يهودية وليست مسيحية، إنها ببساطة خليط من ركام ما تبقى من معتقدات ذات أصول مسيحية يهودية توظف عقائدياً وسياسياً. إنها عبارة عن تأويلات لرؤى أباكالبسية تم إنتاجها وتطويرها مع بدايات عصر النهضة ويتم توظيفها اليوم في المعركة ضد الإسلام. لكن ذلك لا ينفي أن هذه المعتقدات هي بالمعنى " السوسيولجي والمعرفي والسلوكي " تلعب ذات الدور الذي يمكن أن يلعبه الدين من حيث كونها معتقدات إيمانية تهيمن على وعي وشعور الناس وعلى نشاطهم أنها معتقدات في حكم الدين من حيث فعلها لكنها ليست ديناً، وهذا أمر قد يبدوا بسيطاً من الناحية العملية، لكنه في غاية الأهمية من أجل رسم صورة دقيقة عن الصراع الدائر. لذلك فإن الحديث عن الصراع مع هذه المعتقدات كصراع أديان هو غير صحيح، تماماً كما هو غير صحيح الحديث عن حوار معها كحوار بين الأديان كذلك.

إننا كمسلمين لا نعتقد بأن العلاقة مع إي دين سماوي هي علاقة صراع، وقد نظمت الشريعة الإسلامية شكل هذه العلاقة وحدودها بطريقة تفصيلية، فأرست بذلك أول إعلان عالمي حمل مبادئ وقواعد لتنظيم العلاقات الدولية. و إن أجدادنا لم يتحدثوا عن صراع مع الديانة المسيحية حتى في ذروة الحروب الصليبية، وقد أطلقوا هذه التسمية – الحملات الصليبية – ولم يقولوا الحملات المسيحية، للتميز بين المسيحية كديانة سماوية وبين العداء للإسلام على قاعدة المسيحية الذي تمثل في الحملات الصليبية، هذا العداء الذي روجت له الكنيسة في ذلك الوقت وحرضت عليه. ونحن إذ نتحدث عن المسيحية الصهيونية اليوم فإننا نقصد بذلك بقايا ومخلفات هذه العقائد التي تمت إعادة إنتاجها في ظل فوضى الحداثة الغربية، والتي يتم اليوم توظيفها في معركة الكفر ضد الإيمان. إن حضارة الإيمان الوحيدة اليوم هي حضارة الإسلام، وإن حضارة الغرب الحديثة هي حضارة معادية للدين و للمبدأ الإلهي ولا يشفع لها تسترها بالمسميات اليهودية المسيحية، ومن الملفت للانتباه، وهو أمر ذو دلالة أن كل الأحاديث النبوية التي تتحدث عن الحروب والملاحم في آخر الزمان التي أنبئنا عنها رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام لا تتحدث عن حروب مع المسيحيين أنما تذكر حروباً مع الروم كاسم جامع يدل على الأوروبيين ومن بحكمهم، وهي إن تذكر اليهود فإنها تذكرهم كقوم، ومهما بحثنا فإننا لن نجد أي ذكر لحرب مع المسيحية أو اليهودية.

إن مسيرة انحلال الدين اليهودي والمسيحي هي مسيرة تبدأ في فترات قديمة جداً، لكن هذه المسيرة وصلت ذروتها في عصر الحداثة الغربية. لقد قضت الحداثة الغربية على ما تبقى من تدين وإيمان مسيحيين، ولكن كما

يقال فإن القضاء على الإيمان بالله لا يفسح المجال لعدم الإيمان، لكنه يفسح المجال للإيمان بأي شيء آخر سوى الله الحق، وقد تطورت الحداثة الغربية اجتماعياً وتاريخياً عبر خطين متوازيين أحدهما حارب الدين وحارب الإيمان بالله، بينما كان الآخر يواصل تكريسه للإيمان بأي شيء آخر، وقد تمثل هذا الشيء الآخر بمجموعة الرؤى "الأباكليبسية" وتأويلاتها الأنجيلية والبيوريتانية الصهيونية المآل والتي صارت تتحكم في وعي الحشود وفي وعي النخب السياسية كذلك.

وهكذا فإن الغرب لم يتردد كثيراً مع نهاية الحرب الباردة وأعلن بكل وضوح وصراحة أن صراعه القادم ومعركته الكبرى القادمة" هرمجدون المنتظرة " هي معركته مع الإسلام. إن عنوان الصراع العالمي اليوم هو صراع العالم الغربي الذي تتربع على قمته ثقافة أنكلوسكسونية مسيحية متصهينة، عملت على تهويد العالم وحشره في إطار تصور يهودي مزيف للوجود، مع العالم الإسلامي الذي يحمل تصوره الخاص للعالم وهو يصر على بناء حياته ومجتمعه وثقافته ودولته على أسس إسلامية يقدمها كبديل حضاري للحضارة الأنكلوسكسونية المتهودة.

وإن بؤرة هذا الصراع اليوم هي أرض فلسطين التي تمثل نقطة المركز في هذا الصراع ولحظة توتره القصوى، كونها تمثل مسرح كل السيناريوهات الأخروية التي صارت تحدد سياسة واستراتيجية الدولة الأمريكية التي تحتل مكانة القيادة الدولية في عالمنا المعاصر.

الرؤية الإسلامية القيامية كعامل من عوامل الصراع:

لا يخفى على أحد أننا كمسلمين أيضاً نمتلك رؤيتنا القيامية الخاصة لما يجرى من أحداث وأن هذه الرؤية تلعب دوراً كذلك في الحياة السياسية للمسلمين وفي تحديد فهمهم للصراع وأبعاده، على الرغم من كل المحاولات التي جرت لتفسير الصراع بطرق مختلفة قومية وطبقية وغيرها. لكن موقف المسلمين مختلف عن موقف خصومهم، فنحن لم نبادر ونحتل أرض غيرنا بالقوة ولم ننهب ثروات غيرنا من الشعوب ولم نهلك الحرث والنسل تحقيقاً لنبوءة مزعومة، إنما نحن ضحية تآمر المسيحية الصهيونية التي تستمر في حربنا منذ قرون طويلة. لذلك فإن موقفنا هو موقف دفاعي محض له كل مقومات الشرعية.

من جهة أخرى فإننا بتأكيدنا على تصورنا القيامي الخاص وبرؤيتنا للأحداث وتسلسلها بما يتوافق مع هذه الرؤية القيامية لا يعنى ولم يعنى أننا في أي مرحلة من مراحل تاريخنا قد حددنا موقفنا من الشعوب ومعتقداتها تبعاً لهذا التصور القيامي، بل على العكس فقد قدم لنا التاريخ الإسلامي نماذج فريدة في أشكال التعايش بين مختلف الديانات و الشعوب، وإن أهم الفترات الذهبية لليهود والفكر اليهودي هي الفترات التي عاش فيها اليهود في كنف الدولة الإسلامية.

من ناحية أخرى، إذا ما التفتنا إلى ساحتنا الداخلية، فإن التأكيد على الرؤية القيامية لا يهدف إلى تكريس السلبية والانتظار بل يحمل تأكيدات متعددة أهمها:

1- إن التأكيد على هذه الرؤية هو بعث لروح الأمل في نفوس المسلمين بأن نصر الله قادم و أن فلسطين والقدس هي أرض إسلامية وسوف تعود

– بوعد من الله– أرضاً إسلامية مهما طال الزمن و تمادى الأعداء. وإننا اليوم نرفع آية من كتاب الله عز وجل في وجه كل من يريد أن يزرع اليأس والقنوط في نفوسنا من جدوى صراعنا مع العدو الصهيوني ونقول له: (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرا) (الإسراء 7).

2- إن التأكيد على هذه الرؤية هو تأكيد على رؤيتنا الخاصة للصراع الكوني كصراع بين الحق والباطل، الحق المتمثل بدين الله وشريعته، والباطل المتمثل في كل ما يعادي وكل من يعادي دين الله الحق،(وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ– الصف 8).

3- إن التأكيد على هذه الرؤية هو تحصين لنا من كل ما من شأنه أن يصور الصراع على غير حقيقته، وأن يصور لنا أن العيب أو النقص فينا، وأننا غير منسجمين مع روح العصر، وأن التأكيد على البعد الديني في معركتنا مع دولة إسرائيل ومطالباتنا العقائدية هي نوع من الخطاب الماضوي الغير عملي، وأننا نحن المطالبون بتغير موقفنا من هذا الصراع.

4- إن التأكيد على هذه الرؤية لا يلغى حقيقة أننا نتعامل مع وقائع التاريخ انطلاقاً من رؤيتنا للعالم الواقعي، ولسنا مطالبين بأن نضحي بمعطيات الواقع لصالح تصورات ذهنية. لكننا في نفس الوقت لنا مطلق الأحقية الشرعية والتاريخية في أن نربط الأحداث وتغيراتها والعوامل المؤثرة فيها، برؤيتنا الخاصة للتاريخ وحركته، ونستشرف من خلال هذا الربط الآفاق الممكنة للصراع الدائر ونفسر تبعاً لها مواقف الأطراف المختلفة من هذا الصراع.

خاتمة

إن الذي يتصارع اليوم في الشرق الأوسط ليست قوى سياسية كبرى وحسب، إن الذي يتصارع هو رؤى قيامية أخروية مختلفة وتصورات اسختالوجية متباينة يسعى كل منها لتحقيق تصوره الخاص لنهاية التاريخ.

وبالتالي فإن من يعتقد بأن تسوية سلمية لهذا الصراع ممكنه، هو واهم، لأن صراعاً من هذا النوع يمكن أن يكون إما هزيمة كاملة أو انتصاراً كاملاً، ولا مكان لأنصاف الحلول في هذا الصراع، وإن كل جهد يبذل لتسوية هذا الصراع ما هو في الحقيقة إلا إطالة لأمد المعركة وتأخير للحظة الحسم النهائية.

إن الاعتقاد بأن الغرب العلماني محكوم اليوم لمصالحة الاقتصادية فقط، هو تزيف لحقيقة الصراع وإغفال لجانب هو من أهم جوانبه، إن الغرب محكوم في علاقته بالعالم الإسلامي لثقافته أولاً، وثقافته اليوم هي ثقافة مسيحية صهيونية ذات رؤى أخروية طاغية، وبالتالي فإن موقفه من القضية الفلسطينية هو مستمد من مكونات وعي يزخر برؤى " أباكاليبسية " أخروية. ولذلك فإن من يعتقد أن الغرب يمكن أن يكون حليفاً لنا أو حتى أن يقف موقفاً حيادياً في صراعنا مع الصهيونية، هو أيضا واهم.

إن صراعاً من هذا النوع هو صراع شمولي بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، إنه صراع السياسة والاقتصاد والاجتماع والمعتقد، صراع يشمل التاريخ والحاضر والدولة والأسرة والقيم الفردية والجماعية ونمط السلوك اليومي الفردي والجماعي، وإن معركة فلسطين هي خط الجبهة وساحة الاشتباك المتقدمة في هذا الصراع.

إن الصراع على فلسطين اليوم هو صراع الأمة الإسلامية على وجودهــا وعلى كيانها كما لم يكن في يوم من الأيام، و إن معركة فلسطين اليوم هي معركة الدفاع عن هذا الوجود، وإن كل من يساوم في معركة فلسطين، فهو يساوم على وجود الأمة، وإن كل من يرغب في تصفية قضية فلــسطين، يعمل على إلغاء وجود هذه الأمة. هذا هو حجم الصراع وهذه هي طبيعته على حقيقته بدون زيف أو مجاملات.

21- رجينا الشريف، مصدر سابق ص 39
22- رجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، عالم المعرفة ، الكويت 1978 ص 55.
23- رجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، عالم المعرفة ، الكويت 1978 ص 21.
24- رجينا الشريف ، مصدر سابق ، ص 19
25- حول رموز المسيحية الصهيونية المذكورة ، انظر مقالة محمد المنشاوى الواردة سابقاً.
26- غريغوار مرشو ، مقدمات الاستتباع، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996. ص 56 و 123- 132.
27- لمرجعة نصوص هذه الوعود يمكن العودة إلى الموسوعة اليهودية الصهيونية للمسيري، الجزء السادس، الوعود البلفورية.
28- أنظر موقع الدكتور النفيسي : www.alnefisi.com

الهوامش:

1- حول هذا الموضوع أنظر الدراسة القيمة للدكتور يوسف الحسن: " البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي – الصهيوني" مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، 2000

2- التيوغونيا عند اليونان هي أسطورة رمزية تنسب إلى مؤلفها هزيود ، و هي تقدم إطاراً عاماً للمعتقدات اليونانية عن أصل الآلهه وأصل الكون .

3- فرانسوا شاتليه، تاريخ الأيديولوجيات، تر: أنطون حمصي (منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1997) ج1 ص 152

4- انظر في : نعمان أحمد الخطيب، الوجيز في النظم السياسية(مكتبة دار الثقافة عمان 1999) ص 35-37

5- انظر : مقالة عادل الدقاقي " المسوغات الدينية للسياسة الأمريكية إزاء الشرق الأوسط " على الرابط التالي

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/96A66E27-22BF-4BEF-AB1C-1D0C0B9C1EFA.htm

6- أنظر عادل الدقاق ، مصدر سابق

7- عادل الدقاق ، مصدر سابق

8- يرى عبد الوهاب المسيرى في" موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية" أن المعتقدات اليهودية معتقدات " جيولوجية تراكمية" و ذلك لأنها تتبدى مجموعة من المعتقدات المتراكبة في حقبات تاريخية ممتدة.

9- تعود المعتقدات الأخروية اليهودية في أصولها النصيّة إلى ما يعرف بأسفار الرؤى – أباكاليبس- Apocalypse و هي تتمركز في أسفار التوراة كسفر دانيل و سفر أخنوخ الأول و سفر عزرا الرابع و كذلك في مخطوطات البحر الميت – مخطوطات قمران – و في غيرها من كتب النبوءات و الرؤى اليهودية.

10- لقد عرف التاريخ اليهودي العديد من التجسدات التاريخية لشخصية المشيحا المخلص ، كان من أخرها و أبرزها" شبتاي تسفي " في القرن السابع عشر، و" جاكوب فرانك " في القرن الثامن عشر.

11- هناك في اليهود من لا يزال يعتقد بأن عودة اليهود إلى فلسطين قبل نزول المشيح المخلص هو مخالفة لأمر الرب الذي قضى بالشتات على بني إسرائيل و هذه الجماعة معادية لإسرائيل و هي تعتبر قيامها مخالف للمعتقد اليهودي ، لكن تأثير هذه الجماعة محدود

12- البخاري 6503

13- صحيح مسلم 82

14- كثيراً ما ينظر إلى مارتن لوثر على انه من" معادي السامية – أي اليهود " و يوردون دليلا على دعواهم الكثير من النصوص المنسوبة له و التي يتهجم فيه على اليهود ، نحن لا ننفي صحة هذه النصوص لكننا نود أن نلفت الانتباه إلى أن مارتن لوثر كان من اكثر الناس نزقاً تجاه مخالفيه في الرأي و انه قد تحدث عن مخالفيه من غير اليهود بطريقة أكثر بشاعة و عدوانية . لكن كل ذلك لا ينفي حقيقة مركزية هي أن الحركة الذي قام به هذا الرجل قد أعادت المعتقدات اليهودية إلى صلب الإيمان المسيحي و غيرت النظرة المسيحية تجاه اليهود.

15- انظر عبد الوهاب المسيري ، موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية، دار الشروق ، القاهرة ، ج4

16- انظر: الدكتور يوسف الحسن، مرجع سابق، ص 23

17- انظر : محمد المنشاوي ، المفاهيم السياسية للصهيونية المسيحية على الرابط التالي :

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/BF802182-89DF-432C-B5FA-728AEB6A5878.htm

18- حول التحولات الكبرى في العقيدة اليهودية الأخروية ،عبد الوهاب المسيرى، الموسوعة ، ج 6 ص 294 و ما يليها.

19- رجينا الشريف، مصدر سابق ص 64.

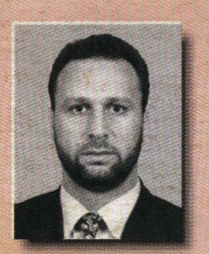
20- أنظر : رجينا الشريف، مصدر سابق ص 65

مركز فلسطين للدراسات والبحوث

الطلبات والمراسلات ترسل على العنوان التالي:
مركز فلسطين للدراسات والبحوث
غزة- قطاع غزة- فلسطين
ص.ب: 1354
هاتف: 2886119-9728+
بريد الكتروني: palcenter2007@gmail.com

occasional Papers

15



تعريف بالكاتب

الإسم: د. محمد عادل شريح

الجنسية: فلسطيني مقيم في سوريه.

المؤهلات:

- دكتوراه فلسفة "الثقافة السياسية والأيديولوجيا" من جامعة الصداقة - موسكو- روسيا الاتحادية عام 1996م
- ماجستير في الصحافة من جامعة طشقند الحكومية من جمهورية أوزبكستان السوفيتية سابقاً عام 1991م
- دبلوم في طرائق البحث الاجتماعي- جامعة الصداقة، موسكو 1996م
- عضو في الجمعية السورية لتاريخ العلوم.



Palestine Center For Studies & Research